النهضة المستحيلة: قراءة المستقبل بعيون الماضي*

(أبو يعرب المرزوقي)

قراءة رضوان زيادة

ربما يكون هاجس النهضة الهاجس الأكثر إلحاحاً بالنسبة للمثقفين العرب الذين ما فتئوا يقلبون وجهات النظر في أسباب تخلفهم وتعثر نهضتهم ويطرحون السبل والطرائق للخروج من أزمتهم الراهنة والانفتاح على مستقبلهم القادم، ورغم تباعد السبل في النظر إلى النهضة بين المثقفين العرب وانقسامهم تيارات شتى في وجهة نظرهم إلى أزمتهم الراهنة، إذ يصر البعض على وسمها بأنها أزمة فكرية تعكس عدم قدرة النخب على تجاوز ما تعيشه مجتمعاتها على مستوى ثقافتها، إذ هي ما زالت تتراوح بين الانغماس في التراث أو التماهي مع الآخر ومع وجود نخبة وسط تتراوح بين هؤلاء وهؤلاء، لتخلق هي نفسها أزمة التوفيق بين ما يستعصي على الجمع، وفريق آخر يرى أن التخلف العربي هو نتاج للتربية الأبوية البطريركية التي تعمق ثقافة الطاعة وتخلف الاستبداد في كل حقل ومجال بدءًا من الأسرة وانتهاءً بأعلى تسلسل هرمي في السلطة، أما الفريق الثالث فإنه يختصر الأزمة في تداعيات انعكاس أزمة الرأسمالية الراهنة وآثارها على مستوى تهميش الأطراف ومنعها للتنمية في دول عالم الجنوب، تستغرق هذه الرؤية الماركسية الجديدة في النظر إلى الأزمة الراهنة وفق منظورها الاقتصادي وإلحاق الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية الأخرى كانعكاس لهذه الرؤية، أما التيار الرابع فينظر إلى التخلف العربي كأزمة اجتماعية سياسية بدأت مع تشكل الدولة القطرية الحديثة

(*) آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، أبو يعرب المرزوقي، بيروت: دار الطليعة، ط 1، 1999.

وما رافقها مع تشكل للنخب ملحقة بها تهمش القطاع الأكبر من الشعب ولا تنظر إليه إلا على أساس أنه همج ورعاع يجب قيادته وسوقه باستمرار، ذلك أنه غير مدرك لأزمته وغير واع لآثارها.

ما يرغب أبو يعرب المرزوقي في قوله في كتابه (آفاق النهضة العربية) هو الخروج عن هذه التيارات الأربع جميعها ليكتب قولاً في النهضة خاصاً به ورغم أنه لا يتجاوز مستوى التوصيف النظري للتخلف العربي الراهن إلى طرح الحلول أو تقديم الإجابات إلا أنه يقدم نظرة أقرب إلى الشمولية النظرية في الواقع العربي المأزوم ومستقبل نهضته المتعثرة.

غير أنه يبقى دائماً محكوماً بإرجاع الأزمة الراهنة إلى جذورها الماضية وفق منطق يطغى عليه دائماً ويرى فيه أنه علينا النظر إلى الوسائل التي تحققت وفقها النهضة العربية الأولى في أثناء صعود المد الحضاري الإسلامي الأول واستلهام هذه الأفكار وتوظيفها من أجل العمل على تحقيق النهضة العربية الثانية المأمولة أو المطلوبة.

لذلك نجده يشد الرحال دوماً إلى اثنين من المفكرين يعتبر نصوصهما قد جسدت النهضة الأولى بأجلى معانيها وهما ابن تيمية وابن خلدون الأول في نظره العقلي والمنطقي والثاني في رؤيته العمرانية والحضرية، وهو لذلك غالباً ما يكيل النقد لابن رشد على عكس العديد من المثقفين العرب الذين دائماً ما يتأولون نصوصه ويمتدحون كتاباته، إذ يعتبر أن كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال) لا يعدو أن يكون فتوى شرعية لإثبات العلاقة بين مجالين للمعرفة مختلفين، وهو لا يرقى إلى مستوى النصوص الفلسفية التي قدمها ابن سينا رغم كثرة ما قيل حول سبقه وبعده في النظر الفلسفي.

إنه يرى أن أزمة العرب والمسلمين لا تزال هي هي بعد قرون من طلب النهضة وتتمثل في فقدان المؤسسات الوسطى كما يسميها وتتمثل في الأسرة والمنشأة والمدرسة والدولة الفاعلة والمعبد، ولذلك فقد كان هم كل من ابن تيمية وابن خلدون هو التحرر من مؤسسات المجتمع الوسطى المتجاوزة لكل دولة بمهامها السامية وقيمها المتعالية تحررها من نزوات المستحوذين على

السلطة السياسية. وقد عمل **الأول** وأعني ابن تيمية على التركيز على الشروط الروحية العقلية دون نسيان الشروط المادية الطبيعية. **والثاني** ابن خلدون عمل على الشروط السياسية الاجتماعية دون نسيان الشروط الروحية العقلية، وقد كان هدفهم السعي لتخليص المجتمع الإسلامي من التردي الميتافيزيقي الخلقي والاجتماعي السياسي، لكنهم كما يرى قد فشلوا في ذلك لأن الأمور لم تتغير كثيراً كما يشي بذلك الواقع العربي الراهن.

لكنه يرى أن ابن خلدون قد وصف داء التخلف العربي بوصف جامع يتجلى في إفساد صورة المجتمع (الدولة) لمادته (العمران) في مجالات المجتمع المدني الخمسة وهي التربية (الأسرة) والاقتصاد (المنشأة المنتجة) والتعليم (معاهد البحث والتعليم) وإدارة الشأن العام (التنظيمات السياسية والاجتماعية والمدنية) والروح (المؤسسات الدينية والإبداعية) ولا يزال هذا الوصف منطبقاً على واقعنا المعاصر الذي نعيش فيه، ومن يعول عليه في التغيير حاله أسوأ من حال مجتمعه، إذ إن النخبات الممثلة للقيم أصبحت كلها توابع لذوي السلطان الذي لا مرد لإرادته المتعالية على كل القيم والقوانين لذلك فنحن نعيش حقيقة شرعية القبيلة الجاهلية والجيش المملوكي وأجهزة الأمن والمخابرات التي تستند إلى حماية القوى الأجنبية المسيطرة على مقدرات الأمة وتستند جميعها رمزياً إلى سلطة المستنقع الإعلامي والإبداعي المزيفين عند النخب الطفيلية.

والخروج من هذا المأزق التاريخي لن يكون بغير الدين ليس بما هو وسيلة سياسية وإنما بكونه دعوة متعالية لعلاج مسائل الإنسان عامة، وبذلك فالإسلام لم يكن مجرد عقيدة لتوحيد العرب أو المسلمين، وإنما هو نظرية في الوجود والقيمة لنجاة الإنسان عامة ـ أياً كان ـ من التردي الذي يقصر وجوده على الأبعاد الدنيا منه وإذا كان العرب والمسلمون يريدون أن يكون لهم وزن دولي فعليهم أن يستمدوا من منزلتهم في الإسلام ما يؤهلهم بالمثال الذي يقدمونه ليؤدوا دوراً في تحرير العالم الإسلامي مما تردى إليه من انحطاط روحي ومادي وتقديم مثال أعلى لإنسانية بجعلهم بحق شهداء على العالمين، ولا يكون ذلك إلا بتحقيق شروط النهضة وهما الوحدة والقوة حيث

أن الوجود الرائد للحضارة العربية الإسلامية تحقق عندما امتلك عبد الملك بن مروان رمزي السيادة وهما التعريب والعملة.

وهكذا يبقى المرزوقي مشدوداً للنهضة كما تجسدت «ماضياً» على أمل أن تتحقق «حاضراً» باستنساخ الأفكار والوسائل التي حققت تلك النهضة فهي كفيلة بإعادة تحقيقها مرة ثانية، غاضاً الطرف عن الظروف البيئية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمنع التكرار وتعيقه، وتجعل أمل إعادة النهضة المشروطة بالأدوات السابقة حلماً طوباوياً يستعصي على الإنجاز عملياً وواقعاً راهناً.

إلا أن ما يسجل له هو جدته في زاوية النظر إلى النهضة العربية الأولى إذا أردنا الانسياق مع مصطلحاته ومفاهيمه، إذ يرى أن المبدأ الذي يجمع القيم الحضارية التي أنتجتها الحضارة الإسلامية ويحدد فعلها المؤسس بصفتها حضارة أسهمت في التاريخ الكوني، هو ختم عهد الأنبياء وإلغاء سلطان الأوصياء، والقصد من تصاحبهما هو امتناع أن تجتمع هذه الأبعاد بعد الرسول في أحد، لذلك كانت جميعُ أزمات حضارتنا منذئذٍ ناتجةً عن عدم إدراك دلالات هذا الختم المؤسس لحضارة مابعد الأنبياء، أي الشروط التي تجعل كل البشر خلفاء مستغنين عن الأوصياء، وتلك هي علة الحرب الأهلية التي هي أكبر الأدواء في تاريخنا منذ الفتنة الكبرى، والتي تتجلى في كيفية الجمع بين ختم النبوة ونفي الوصية.

ورؤيته هذه تجعله يراهن على أن يقوم الفكر العربي الإسلامي في العصر الوسيط بدور في الفكر المعاصر، حيث أن دوره لا ينحصر فيما انقضى مما فات بل هو يمتد إلى المقبل مما هو آت، إنه ليس مجرد وسط في الزمان ولا هو وسيط في النقل بل إن ما أضافه إلى فاعليات العقل الإنساني جعله لا يزال قائماً فيها قيام القادر على المشاركة في إبداع المقبل منها وليس فقط في المدبر، وذلك بحكم عملين أساسيين، أحدهما فقط كان ملتفتاً إلى الماضي، أما الثاني فهو عين الالتفات إلى المستقبل، فضلاً عن الثورة الوجودية التي أسسها والتي يزال الغرب يسعى إليها دون طائل. ويعني بالثورة الوجودية تجاوز أساس جميع الفصامات التي تعاني منها الحضارة

المستندة إلى الأفلاطونية المسيحية دون الوقوع في التطرف المضاد المؤدي إلى عبادة المتناهي والدنيوي، ذلك أنه يقسم الحضارات إلى قسمين وفق ثنائية بحكم التقسيم الغائي، فهناك حضارات حلولية وهناك حضارات استخلافية الأولى تتسم بالنزوع إلى الحرب وهي التي تجسدها الحضارة اليهودية ـ المسيحية والثانية تتسم بالنزوع إلى السلم وهي التي تجسدها الحضارة العربية الإسلامية والفرق بين الحضارتين ليس فرقاً نوعياً وإنما هو كمي إذ هو يتعلق بتحقيق منجزات فاعليات العقل ولا يتعلق فقط بمنزلتها في الوجود الإنساني الفردي والجماعي. ووفقاً لرؤيته تلك في تقسيم الحضارات يعتبر أن الحضارة العربية الإسلامية في عصر نهضتها الأولى قد جسدت أفضل ما في الأولى مع أكمل ما في الثانية لذلك حققت سيادتها الكونية، ولهذا فالتفكير الآن في استئناف النهضة في التاريخ العربي المعاصر لن يكون بغير الفكر الإصلاحي الجامع بين التجربة الفلسفية العلمية والتجربة الدينية الصوفية، وهذا الوعي الإصلاحي قد تجسد مرة أخرى في رمزي هذا الوعي وهما ابن تيمية وابن خلدون اللذين تمكنا من تجاوز الانحطاط الفكري المتمثل في النزعة الأفلاطونية المحدثة ذات الميل الأرسطي التوراتي والنزعة الأفلاطونية المحدثة ذات الميل الأفلاطوني الإنجيلي وتمكنا من تقديم الصياغة النهائية للفكر الإصلاحي عن طريق الجمع بين الإصلاح الفلسفي والسياسي والتجربة الروحية الدينية، وقد مثل ابن سينا والغزالي جماع هذا الفكر، إذ هما يمثلان مركز الثقل في الثقافة العربية الإسلامية أولاً ثم في الثقافة الإنسانية ثانياً، فهما قد وحدا بين كل ما تقدم عليهما في الثقافتين الفلسفية العلمية والدينية الصوفية فكان كل ما تلاهما لا يمكن أن يكون إلا نابعاً من أعمالهما إيجاباً أو سلباً في شطري الإسلام (السني والشيعي) أولاً ثم في ما يماثلهما في الغرب أخيراً (البروتستنتي والكاثوليكي).

إن قراءة المرزوقي للنهضة بهذه الصيغة الاستلهامية جعلته يسقط مراراً في فخ الاختزال والتبسيط القائم على نموذج المحاكاة الشكلية، ويبدو ذلك عندما يسقط النموذج الماضي على واقع الحاضر في أحد مجالات الحياة، فمثلاً يعتبر أن ما ذكره ابن خلدون في الاقتصاد إنما يعني به في وقتنا

الحاضر المؤسسات المنشآت الاقتصادية وأن ما ذكره عن الشأن العام يعني التنظيمات السياسية والاجتماعية والمدنية، أما الروح فإنما يقصد بها المؤسسات الدينية والإبداعية.

وإذا كانت هذه القراءة تدخل في حقل عصرنة الماضي فإنها تمثل أحياناً عائقاً أمام فهم الحاضر بتعقيداته الجديدة المتشعبة عندما تعيده إلى أصوله كما ترى هذه القراءة الماضوية، وهي إن صدقت شكلاً فإنها تنتفي عملياً وواقعاً الذي غالباً ما يتأسس وفق نماذج عصرية اقتصادية وسياسية واجتماعية غير محكومة بنماذجها الماضية.

وطبيعي بعد هذا الانشداد الماضوي أن يكون المرزوقي حاداً في التعامل مع الفكر الغربي ومع مندوبيه الدائمين في الفكر العربي إذ يعتبر أن هؤلاء قد خلقوا لنا مستقبلاً علينا السعي وراء تحقيقه، وهذا المستقبل قد تجسد في الحضارة الغربية، وهو لذلك أي المستقبل لم يعد مجهولاً ممكناً نسعى إلى تحقيقه بل صار حاصلاً متحققاً ينبغي تكراره محاكاةً للسابقين وهؤلاء الذين يتبنون هذا الرأي يخادعون أممهم بالاقتصار على التحلي بأسماء مسمياته، إذ هم لا يحاكون الغرب فعلاً كما هو حقيقة، فمحاكاة الغرب الفعلية تعني الفعل مثله لا أخذ مفعولاته، والفعل مثله يعني الإبداع أو بصورة أدق إيجاد المؤسسات المبدعة وتمكينها من شروط الإبداع.

وإذا كان تشخيصه للأزمة قد انتهى في طبيعة تركيبة النخبة فإنه يعتبر أن الأزمة قد تعينت تعيينها الأتم في الأمة العربية أكثر مما هي عند غيرنا من الأمم لكون أرضنا صارت ملتقى وجهيها العيني الخصوصي (العنصرية الصهيونية) والكلي العام (العولمة الأمريكية) فاجتمع عندنا انبعاث الطموح إلى الإسلام في التاريخ الكوني وفرصة تحقيق هذا الإسهام بفضل حصول الصدام مع من يمثل ذروة الحضارة الكونية حالياً في مجال الروح والمادة معاً. لذلك فصراعنا مع إسرائيل الموجودة في الأرض العربية فرصة تاريخية تفوق أهميتها وجود يهود خيبر في المدينة، وصراعنا مع أمريكا الموجودة في أرضنا فرصة تاريخية تفوق أهميتها صراعنا مع فارس وبينزطة اللتين كانتا تحتلان جزءًا كبيراً من أرضنا وخاصةً أطرافها، بينما احتلال أمريكا الآن للأطراف والقلب منها.

وبذلك تكون الأزمة التي تعيشها الأمة العربية أزمة كونية لأن الخروج منها أمر يهم العالم أجمع ليساعده على الخروج من مأزقه وتخبطاته، وهكذا تتضخم الذات العربية مع المروزقي لتصبح أشبه بالمخلص التاريخي للعالم أجمع، وهنا تكمن المفارقة فنحن نتحدث عن المأزق التاريخي للتخلف العربي الراهن الذي استمر على مدى قرون طوال، وبنفس الوقت نحلم بقيادة الكون والبشرية؛ فعلى الرغم من أننا الآن في أسفل سلم التراتب بين الأمم نطمح وبقدرة قادر أن نكون سادة الأمم.

إن ذلك ليس عصياً على المرزوقي ما دامت النهضة العربية الأولى التي يتمثلها دائماً ويستلهمها باستمرار مثلت بالنسبة لديه حضارة كونية وإنسانية، وما دام الماضي قد حقق النهضة بصفتها تلك فلم لا نستطيع باستنساخ هذا الماضي نفسه أن نحقق حضارتنا الكونية المعاصرة.

ما يغيب عن المرزوقي دائماً زمن الحاضر ذلك أنه دائماً ينوس بين زمنين، الماضي المشدود إليه باستمرار والمستقبل الذي يطمح إلى تحقيقه، وما بينهما الذي هو حال الزمن الراهن لا يهمه كثيراً، لأنه طارئ وعارض على الأمة العربية التي جعلها التاريخ حضارة إنسانية وكفيل بالمستقبل أن يخلق لها الحضارة نفسها.